مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية
المجلد (١٦) العدد (٤) نيسان (٢٠٠٩)

المناظرات النثرية في الأدب الأندلسي

م.م. واقدة يوسف كريم
جامعة تكريت / كلية التربية / سامراء
قسم اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ليس بخاف علينا أن الأندلس بلاد عزيزة على العرب والمسلمين التي تعد امتداداً للمشرق العربي، وما أنتجته هذه البلاد من علوم شتى وفنونً مختلفة وهي تمثل حقبا مزدهرة وعصوراً مشرقة، فخلال ثمان قرون من الزمن أشاد العرب رقي فيها والأدب هو جزء من هذا الرقي بنوعيه (الشعر والنثر) وتأثر بتلك البيئة التي عاش فيها وأثر في بيئته وفيما جاورها من بيئات، ويعد الأدب ارفع الفنون وأكثرها حظوة لدى أهل الأندلس بطبقاتها الاجتماعية كافة من ملوكٍ ووزراء وقضاة وفقهاء ورجالٍ ونساءٍ.

ومن الفنون الأدبية التي برع بها الأندلسيون، فن المناظرات وأكثرنا تعرف على هذا المصطلح من خلال المتابعة للمناظرات الدينية أو السياسية ،وشغل معظم الباحثين والدارسين ولقي عناية فائقة من هؤلاء الدارسين لما قدمه من مصنفات ورسائل حملت رؤى وأفكاراً قامت في أساسها على الجدل والحجة والبرهان والمنطق

وانه ليس بجديد وإنما جذوره تمتد إلى عصر ما قبل الإسلام باختلاف المسميات وإجراء نوع من التغييرات التي أعكستها البيئة عليها،فمن هذه المسميات (المنافرات) (المعارضات) (النقائض)[1] واجد أن مصطلح المناظرات هي اقرب إلى بحثنا وذلك لتميزها عن المعارضات والنقائض بأن المناظرات لا تشترط وجود شخصين أو أكثر وإنما قد تعتمد على خيال كاتبها وهو يوضع شخصياتها سواء كانت من بشرية أو على لسان النباتات أو الحيوانات أو حتى الجماد مما يضفي عليها جانب التشويق وإدخال القارئ في خيال ممتزجٍ بطبيعة الأندلس ومفاتنها ،كما نجد طابع الفكاهة يتخللها كمناظرة

الزرزوريات، وزيادة على ذلك نجد المناظرات ضمن فنون أخرى كالقصص مثل قصة التوابع والزوابع.

تعريف المناظرة في اللغة والاصطلاح

المناظرة لغة: وهي المباحثة والمباراة في النظر واستحضار كل ما يراه ببصيرته[٢]، والمناظرة أن تناظر أخاك في آمر إذ أنظرتما فيه معاً كيف تأتيانه، وناظره من المناظرة[٣]. ويقال ناظرت فلاناً أي صرت نظيرا له في المخاطبة، والمناظر المجادل والمحاج[٤]، وناظره مناظرة بمعنى جادله مجادلة[٥]، وربما يكون هذا أوضح تعريف للمناظرة في معاجم اللغة.

المناظرة اصطلاحاً: تعريفها اصطلاحاً لا يختلف عن تعريفها لغة وهي مجادلة أو ترديد كلام بين اثنين أو أكثر في موضوع ما بهدف أثبات وجهة نظر، أو بقصد كل منهما تصحيح قوله، وأبطال قول صاحبه مع رغبة كل منهما في ظهور الحق[٦].

والمناظرة بوصفها ضربا من ضروب النظم الأدبي (الشعر والنثر) يختص به الأدب العربي منذ القدم. وتنوعت موضوعاتها، فمنها ما تناول الموضوعات الدينية بهدف الوعظ الديني ومدح الحكام والخلفاء، ومنها ما تناول الأغراض السياسية، للتعبير عن جور الحكام والانقسامات السياسية، ومنها ما تناول الموضوعات الاجتماعية، التي تهاجم الفئات المستغلة، زيادة على المناظرات بين أنواع الأسلحة والبلدان والأماكن، وأنواع النباتات أو الحيوانات أو الجمادات أو العوامل الجغرافية ،التي تتميز بإطفاء طابع الخيال عليها.

وقد تكون المناظرات شخصية كأن يتفاخر المتناظران بنفسيهما كمناظرة ابن حزم الأندلسي[٧] وأبو الوليد الباجي[٨]. إذ يقول الباجي لابن حزم: "أنا أعظم منك همة في طلب العلم ،لأنك طلبته وأنت معان علية، تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق. فرد عليه ابن حزم قائلا: هذا الكلام عليك لا لك، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته، لم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة[٩]. ويعلق المقري على هذه المناظرة قائلاً

"فأفحمه" وهو يقصد إفحام ابن حزم أبا الوليد الباجي وكأنه قد حكم على الباجي بالهزيمة والانقطاع. إذ لا يوجد في هذه المناظرة غالب أو مغلوب، فكلاهما يعبر عن واقعه الشخصي ،ومن حق كل واحد منهما أن يفخر بنفسه و بأنجازاته.

ويعد فن المناظرات ظاهرة أندلسية النشأة جماعية الأداء، منقطعة الامتداد، محدودة الوجود زمنياً وخاصة في القرنين الخامس والسادس الهجريين، ثم تلاشت فأضحت أثرا بعد عين، وسبيلا بدئت ثم لم يمض فيها من هم في مستوى هذا الرعيل من الأدباء وقدرتهم الأدبية[١٠] وحقق النثر الفني الأندلسي في هذين القرنين طفرة هائلة على درب التطور والنضج حين شرع يغزو المجالات التي كانت وقفا على الشعر[١١] فراح الكتاب يبحثون عن صيغة فنية جديدة فارتادوا آفاق المناظرات ،تحدوهم رغبة صادقة في إقامة الحجة على أن من بين الأندلسيين من يوضع مع إعلام المشارقة في كفتي ميزان[١٢].

وهناك عوامل وأسباب ساعدت على ظهور فن المناظرات في الأندلس بوصفه فناً مستقلاً بذاته منها، الخلفاء والنقاد ومؤرخو الأدب.

إذ ساهم بعض الحكام دورا كبيرا في تهيئة مناخ المنافسة بين الشعراء والكتاب. وعقد مجالس المناظرات ومن ما يروى عن المعتضد العبادي (ت٤١٦هـ) ان حبيب الحميري (ت٤٤٠هـ) انشده مدحية دبجها بمقدمة روضية ، يحاكي بها قصيدة للفقيه أبي الحسن بن علي... حيث أمر بإحضار كل من أبي بكر بن قوطية (ت٣٦٧هـ) وأبي جعفر بن الآبار (ت٤٢٣هـ)... وغيرهما وأمرهم بمناظرتها[١٣] كما أن لعشق المنصور بن أبي عامر (ت٣٩٢٩) للأزهار وتسمية بناته بأسماء بعضها دور في استثارة قرائح شعراء بلاطه وكتابة ،فراحوا يدبجون القصائد والرسائل التي تتناول المفاضلة والمناظرة[١٤]

وذهب النقاد إلى أن المناظرات سمة من سمات التفوق وإمارة من إمارات الإجادة وهي أداة يلتمس بها التقدير والتكريم عند من هم أعلى قدرا من معاصريه وأوفى شهرة وأعلى كعبا في الأدب بفرعية (الشعر والنثر)[١٥]. ومن النقاد وواضعي أسس النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس ابن شهيد الأندلسي[١٦].

ونجد لابن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ) احد مؤرخي الأدب الأندلسي أثرا فاعلاً في شيوع ظاهرة المناظرات النثرية. فكان يحمل الرسائل المتميزة لكتاب آخرين محرضا

إياهم على مناظرتها، ففي تضاعيف ترجمته للوزير الكاتب أبي محمد عبد الغفور(ت٥٣١هـ) يقول: وعرضت عليه رسالة أبي عمر الباجي وأبي القاسم بن الجد المتقدمين في صفة المطر بعد القحط [١٧]... وسوف نوردها في بحثنا هذا. وفي ترجمة أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم (ت٤٣٨هـ) قال: وعرضت على أبي المغيرة رسالة بديع الزمان في الغلام الذي خطب إليه وده بعد أن عذر وبقل وجهه وأزهر، فناظرها برقعة يقول فيها: ورد كتابك تنشد ضالة ودنا، وترفع خلف عهدنا، وتطلب ما أفاتته جريرتك الينا " وذهبت به جنايتك علينا، أيام غصنك ناضر ، وبدرك زاهر[١٨].

وأما الكتاب الأندلسيون فقد اتخذوا من بعض الأعمال النثرية المشرقية مجالاً للمناظرة، معبرين عن حتمية انتماء اللاحق للسابق تارة، وشرعية الانفصال والتجاوز تارة أخرى. فأنهم راحوا ينكفئون على نماذجهم النثرية الطريفة فأداروا معها حواراً فنياً، افرز ظاهرة جديدة لا عهد للنثر المشرقي بها تتمثل في المناظرات النثرية[١٩]، وان لطبيعة الاندلس الفاتنة اثراً في شيوع ظاهرة المناظرات.حيث برع الكتاب في عمل مناظرات بين النباتات والحيوانات والظواهر الطبيعية كافة.

وسوف نعرض هذه المناظرات نبدأها بمناظرة الإزهار.

مناظرة الأزهار

يلمس من يدرس الأدب الأندلسي ويتقرى نمط حياتهم شده ولع الأندلسيين بالإزهار، وكثرة شدوهم بسمات الحسن فيها[٢٠]. واخذ هذا الولع صوراً شتى وأنماطا متباينة، كان أهمها ما قام به ثلة من كتاب القرن الخامس الهجري ، عندما راحوا يجرون على السنة بعض الأزهار حورات، متخذين منها أقنعة لرصد واقعهم الاجتماعي والبوح بما يختزنه اللاشعور من طموحات. وبعض الباحثين قال أن ابن برد الأصغر مخترع هذا النوع[٢١]، وأول من كتب فيه، والحقيقة أن الفضل في ابتكار المناظرة بين صنوف الأزهار يعود إلى المشرق[٢٢]. مما حدا بثلة من شعراء الأندلس إلى مناظرتها.فأكثروا من القصائد التي يفضلون الورد على بقية الأزهار[٢٣].

ولما كان اغلب كتاب الأندلس فرسان شعر ونثر يحوزون إعجابنا ، ويثيرون دهشتنا بجمعهم بين جوهري الشعر والنثر، والإجادة فيهما على حد سواء[٢٤]، راح النثر يحلق في أفاق كانت حكراً على الشعر، فتسربت هذه الظاهرة، وغيرها لتأخذ مكانها في تضاعيف كتاباتهم، وكان الجزيري[٢٥]، المعدود من المبدعين المولعين بالبحث عن صيغ جديدة، أول من عالجها من خلال رسالة كتبها للمنصور بن أبي عامر على لسان بنفسج العامرية مفضلا إياه على كل من البهار والنرجس[٢٦]، يقول: "إذا تدافعت الخصوم أيد الله مولانا المنصور في مذاهبها وتنافرت في مفاخرها فإليه مفزعها وهو المقنع في فصل القضية بينها لاستيلائه على المفاخر بأسرها وعلمه بسرها وجهرها وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنهما والفخر بمشابههما كل مذهب وما منهما إلا ذو فضيلةٍ غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا وأعذب من الغمام الذي يسقينا فإن كانا قد تشبها في شعرهما ببعض ما في العالم من جواهر الأرض ومصابيح السماء وهي من الموات الصامت فإني أتشبه بأحسن ما زين الله به الإنسان وهو الحيوان الناطق مع أني أعطر منهما عطرا وأحمد خبرا وأكرم إمتاعاً شاهداً وغائبا ويانعاً وذابلاً وكلاهما لا يمتع إلا ريثما يمنع ثم إذا ذبل تستكره الأنوف شمه وتستدفع الأكف ضمه وأنا أمتع رطباً ويابساً وتدخرني الملوك في خزائنها وسائر الأطباء وأصرف في منافع الأعضاء فإن فخرا باستقلالهما على ساقٍ هي أقوى من ساقي فلا غرور إن الوشي ضعيف والهواء لطيفٌ والمسك خفيفٌ"[٢٧].

وكان لإعجاب المنصور بن أبي عامر (ت٣٩٢هـ) بالزهور إعجابا حدا به إلى تسمية بناته بأسماء بعضها، وتشجيع ولده المظفر (٣٩٩هـ) كبير اثر في نفوس الشعراء والكتاب فأكثروا من القول في أنواع الزهور تفضيلا ونقدا، فتوفر لأندلس القرنين الرابع والخامس الهجريين منه قدر كبير[٢٨].

كتب ابن برد رسالته في المفاخرة بين الأزهار لأبي الوليد بن جهور (توفي بعد٤٢٦هـ)[٢٩] في سياق نجهله، متخذاً من القالب القصصي أطارا، ومن الحوار المشوب بنفس خطابي أسلوبا، ومن السمو بالورد إلى مرتبة الصدارة أقدمت عليه بقية الزهور.

وبدأ ابن برد الأصغر رسالته بداءة تستدعي مناخاً طالما أشاعه كتاب المقامة فيما يكتبون، من بث لدفء الواقع في تضاعيف موضوعاتهم التي تتسم احياناً بالجفاف والإيهام، فجاءت أحداث رسالته الخيالية مروية بإسنادها لثلة من المبدعين وجعلها كمحور درامي يشيع فيه أجواء خطابية حيث يقوم حكيم الزهور مفتتحا كلامه بالحكمة إلى المولى (عزوجل) بان المخلوقات على اختلاف أنواعها وتباين سبل الحياة وتفاوتها متخذاً من هذه الحكمة فكرة المناظرة والمفاضلة والمنافسة بين هذه المخلوقات.

واتخذ الورد ملكا لمملكة الزهور لأنه يتسم بسمات يتفرد عن بقية الزهور[٣٠]. فهو أن فقد عينه لم يفقد أثره...وهو احمر والحمرة لون الدم، والدم صديق الروح...[٣١]. وبهذا قال: ((أما بعد يا سيدي ومن أنا أفديه فانه ذكر بعض أهل الأدب المتقدمين فيه وذوي الظرف المعتنين بملح معانيه أن صنوفا من الرياحين وأجناسا من أنوار البساتين جمعها في بعض الأزمنة خاطر خطر بنفوسها وهاجس هجس في ضمائرها... فقام منها قائمها فقال يا معشر الشجر وعامة الزهر إن الله تعالى اللطيف الخبير الذي خلق المخلوقات وذرأ البريات باين بين أشكالها وصفاتها وباعد بين منحها وأعطياتها فجعل عبدا وملكا وخلق قبيحا وحسنا فضل بعضا على بعض حتى اعتدل بعدله الكل واتسق على لطف قدرته الجميع فجعل لكل واحد منها جمالا في صورته ورقة في محاسنه واعتدالا في قده وعبقا في نسيمه ومائية في ديباجته وقد عطفت علينا الأعين وثنت إلينا الأنفس وزهت بمحضرنا المجالس حتى سفرنا بين الأحبة ووصلنا أسباب القلوب وتحملنا لطائف الرسائل وصيغ فينا القريض وركبت على محاسننا الأعاريض... لم يغب عرفه وهو أحمر والحمرة لون الدم والدم صديق الروح وهو كالياقوت المنضد في أطباق الزبرجد وعليها فرائد العسجد وأما الأشعار فبمحاسنه حسنت وباعتدال جماله وزنت))[٣٢].

وها هي الزهور تنادت لعقد اجتماع نابع من رغبة ملحة وصادقة لمناقشة خاطر خطر بالنفوس، ومحق هاجس هجس في الضمائر ، يتطلب الحوار حوله والبت فيه قدراً كبيراً من الاحتشاد والإجماع[٣٣]. ((فتخيرت من البلاد أطيبها بقعة ووأخصبها نجعه، وأظلها شجراً، واغضرها زهراً، وأعطرها نفس ريح، وارقها دمع ندى...))[٣٤].

وما أن انتهى حكيم مملكة الزهور من سرد حيثيات تفضيل الورد على ماعداه وكان ممن حضر هذا المجلس من رؤساء الأنوار والأزهار، النرجس الأصفر، والبهار، والبنفسج، والخيري النمام ، قامت هذه ا الأزهار بمناظرة حكيم مملكة الزهور[٣٥] فقال النرجس الأصفر: ((والذي مهد لي حجر الثرى وأرضعني ثدي الحيا لقد جئت بها أوضح من لبه الصباح واسطع من لسان المصباح ولقد كنت أسر من التعبد له والشغف به والأسف على تعاقب الموت دون لقائه ما أنحل جسمي ومكن سقمي وإذ قد أمكن البوح بالشكوى فقد خف ثقل البلوى))[٣٦]

ثم قام البنفسج فقال: ((على الخبير سقطت أنا والله المتعبد له والداعي إليه المشغوف به وكفى ما بوجهي من ندوب ولكن في التأسي بك أنس))[٣٧]. ثم قام البهار فقال: ((لا تنظرن إلى غضارة منبتي ونضارة ورقي ورقتي وانظروا إلي وقد صرت حدقة باهتة تشير إليه وعينا شاخصة تندى بكاء عليه))[٣٨].

نجد قدرة ابن برد في دقة أحكامه وبراعة اخراجة عندما يجعل الخيري النمام يكتم عبيره نهاراً ويبوح به ليلاً لا على أساس هذه طبيعته التي خلقها الله بل إكباراً واستحياً للورد. فقال: ((والذي أعطاه الفضل دوني ومد له بالبيعة يميني ما اجترأت قط إجلالا له واستحياء منه على أن أتنفس نهارا أو أساعد في لذة صديقا أو جارا فلذلك جعلت الليل سترا واتخذت جوانحه كنا))[٣٩].

وبهذا عقد ابن برد مناظرة أجراها بين أنواع الأزهار مجريا على ألسنتهم حديثا يعكس قدرته على صياغة أسلوب جدلي يستمد اتساقه من أدلة عقلية دقيقة وخيال بارع في التصوير. ثم ينهي مجلس المناظرة بعقد مبايعة للورد يكون شاهداً على صدق موقف مملكة الزهور بقوله: ((فلما استوت آراؤها قالت إن لنا أصحابا وأشكالا وأترابا لا نلتقي بها في زمن ولا نجاورها في وطن فهلم فلنكتب بذلك عقدا ينفذ على الأقاصي والأداني فكتبوا رقعة نسختها هذا ما تحالفت عليه أصناف الشجر وضروب الزهر وسميها وشتويها وربيعيها وقيظها حيث ما نجمت من وهاد أو ربوة وتفتحت من قراره أو حديقة عندما راجعت من بصائرها وألهمت من مرا شدها واعترفت بما سلف من هفواتها وأعطت للورد قيادها وملكته أمرها وعرفت أنه أميرها المقدم لخصاله فيها والمؤمر لسوابقه عليها

واعتقدت له السمع والطاعة والتزمت له الرق والعبودية وبرئت من كل زهر نازعته نفسه المباهاة له والانتزاء عليه في كل وطن ومع كل زمن فانه زهرة قضى عليها لسان الأيام هذا الحلف فلتعرف أن إرشادها فيه وقيام أمرها به))[٤٠].

ونلحظ أن المناظرات التي أجراها ابن برد بين الأزهار حفزت قرائح كتاب معاصرين له منهم أبو الوليد إسماعيل بن محمد الحميري الملقب بحبيب (٤٤٠هـ)[٤١]. فخرج أبو الوليد خروج ابن برد وحذا حذوه في بناء رسالته على القص والحوار ، ورسالته هذه: ((خاطب بها المعتضد يومئذ قال فيها فأول من رأى ذلك الكتاب وعاين الخطاب نوا وير فصل الربيع التي هي جيرة الورد في الوطن وصحابته في الزمن ولما قرأته أنكرت ما فيه وبنت على هدم مبانيه ونقض معانيه وعرفت الورد بما عليه فيما نسب إليه من استحقاقه ما لا يستحقه... فكتبت إلى الأقحوان والخيري الأصفر كتابا قالت فيه لو استحق الورد إمامة واستوجب خلافة لبادرتها آباؤنا ولعقدها أوائلنا التي لم تزل تجاوره في مكانه وتجيء معه في أوانه ولا ندري لأي شيء أوجبت تقديمه ورأت تأهيله بما غيره أشكل له وأحق به وهو نور البهار البادي فضله بدو النهار...))[٤٢].

وكاتب أخر هو أبو عمر يوسف بن جعفر الملقب بابن الباجي (٥٢٠هـ). فعلى لسان البهار خاطب المقتدر بن هود (ت ٤٧٤هـ) يقول: ((أطال الله بقاء المقتدر بالله مولاي وسيدي ومعلي حالي ومقيم أودي وأعاذني من خيبة العناء وعصمني معه من إخفاق الرجاء ولا أشمت بي عدوا من الرياض يناصبني وحاسدا من النواوير يراقبني وقد علم الورد موقع إمارتي وغني بلطيف إيمائي...))[٤٣]. شاكياً تعدي الورد عليه واغتصاب ملكه ، طالباً ان ينتصر له، ويرد اليه ما اغتصب منه.

كما أن أبا الفضل بن حسداي الإسلامي اتخذ النرجس قناعاً يعرب من خلاله عن طموحاته الشخصية خاطب بها المقتدر بقوله: ((أنا وصل الله بهجة سلطانك ونضرة أوطانك إذا لحظتني بعين الاعتبار قائد النوار ووافد الأزهار وأنا لها جالب وهي طاردة ومبشر بورودها وهي مؤسسة متباعدة فإني غلبت بما في طبعي من التيقظ والذكاء خلد التراب وصرد الهواء فقمت عن إساءة الفصل عذراً ونحلت الشتاء على الربيع فخراً وفضلت الورد سيد الأزهار طراً وتورده شاهد خجله وتستره من الحياء في أكمته وكلله فلي

عليه فضل العيون على الخدود وشرف السيد على المسود فبينا أنا سقيم الجفون من غير سقم مائل الجيد من دون ألم حتى أتيح لي ظريف من خواصك يقصدني ونبيل من عبيدك يعتمدني فأوجست حذراً وتشوفاً حتى أنسني بالكلام تألفاً وقطفني بغير إيلام تلطفاً وحاورني بلطف يلقنه النوار عياناً... وما تقر عيني إلا بدمعها فلا تحتقر أيها العزيز مناب مثلي واعظاً مفصحاً وهنا شفيعاً منجحاً فإن الأزهار على العموم تجلو قذى العيون وتفض ختام الهموم فهي كالثغور أوضحها ابتسام وكاللآلىء زانها في الأجياد انتظام...))[٤٤].

ومن هذا نلحظ المنحى الرمزي وقدرة الكتاب الأندلسيين على خلق جوٍ من الخيال مستنداً على افكارعلمية ، وهذا نتيجة انعكاس البيئة الأندلسية وما تحوي هذه البيئة من جمال الطبيعة الفاتنة. كما تكشف عن براعة الكتاب في الاحتجاج والجدل على ألسنه الأزهار، ويعلل الدكتور أحسان عباس هذه الظاهرة بقوله: "أما القطع الشعرية والنثرية التي كتبوها للمفاضلة بين نور ونور، واحدهم يرد على الثاني، فقد افتتحوا بها مقدرتهم الجدلية، واتخذوا من الطبيعة موضوعاً للجدل بدلاً من ان يكون جدلهم حول شؤون العقيدة، اذ كانت المناظرات في امور العقيدة مظنة خطر، وما زال شأنها ضعيفاً حتى ظهور ابن حزم، وكانوا في الحالين يرضون لديهم ميلاً عقلياً اكثر من توفرهم على اقامة الصلة العاطفية بينهم وبين المنظر الجميل"[٤٥].

مناظرة الأمطار

والى جانب ولع الاندلسين واهتمامهم بالأزهار لقد عني كذلك برصد ظاهرة المطر وتداعياته، نشأت المناظرات منها مناظرة لأبي القاسم بن الجد (٥١٥هـ) وابن الباجي (٥٢٠هـ) وأبي محمد بن عبد الغفور (٥٣١هـ).

فيقول أبي القاسم بن الجد في صفة المطر بعد القحط: ((لله تعالى في عباده أسرار لا تدركها الأفكار وأحكام لا تنالها الأوهام تختلف والعدل متفق وتفترق والفضل مجتمع متسق ففي متحها نفائس المأمول وفي منحها مداوس العقول... ولما ساءت بتثبط الغيث الظنون وانقبض بتبسط الشك اليقين واسترابت حياض الوهاد بعهود العهاد وتأهبت رياض النجاد لبرود الحداد واكتحلت أجفان الأزهار بإثمد النقع المثار وتعطلت الأنوار من حلي الديمة المدرار أرسل الله تعالى بين يدي رحمته ريحا بليلة الجناح مخيلة النجاح سريعة الإلقاح فنظمت عقود السحاب نظم السخاب وأحكمت برود الغمام رائقة الأعلام وحين ضربت تلك المخيلة في الأفق قبابها ومدت على الأرض أطنابها لم تلبث أن انهتك رواقها وانبتك وشيكا نطاقها وانبرت مدامعها تبكي بأجفان المشتاق غداة الفراق وتحكي بنان الكرام عند أريحية المدام فاستغربت الرياض ضحكا ببكائها واهتزت رفات النبات طربا لتغريد مكائها فكأن صنعاء قد نشرت على بسيطها مفوقا وأهدت إليها من زخارف بزها ومطارف وشيها ألطافا وتحفا وخيل للعيون أن زواهر النجوم...))[٤٦].

اذ يبدا رسالته في قدرة الله تعالى وإسرار هذه القدرة التي لا تدركها الافكار واعجابه بارادته الحكيمة في التصرف بشؤن الكون، فما يحدث امراً، الا لحكمة بالغة ينبغي ان يلتفت الناس اليها، فوصف الارض المجدث واثر ذلك في نفوس الناس وصورة الأرض بعد نزول الغيث وربطها بمظاهر الفرح والسرور التي انعم بها الناس[٤٧]. وبيان قدرته بعد ان اصاب القحط والفخر والشدائد التي اصابت العباد وهذا الانذار والياس ارسل الله تعالى بين يدي رحمته (بليلة الجناح مخيلة النجاح سريعة الإلقاح فنظمت عقود السحاب...)

هذا المطر الغزير وكانها تبكي باجفان المشتاق بعد الفراق مما اضحكت الرياض واهتزت النباتات طرباً بهذا اللقاء ويختمها بالحمد لله على ذلك وهو الكفيل باتمام النعمى وصلة اسباب الحياة بعزته.

وابن الباجي (٥٢٠هـ) يقول في نزول الغيث بعد القحط: ((إن لله تعالى قضايا واقعة بالعدل وعطايا جامعة للفضل ومنحا يبسطها إذا شاء إنعاما وترفيها ويقبضها إذا أراد إلهاما وتنبيها ويجعلها لقوم صلاحا وخيرا ولآخرين فسادا وضيرا "وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد"[٤٨]

وإنه كان من امتساك السقيا وتوقف الحيا مايرع به الآمن واستطير به الساكن ورجفت الأكباد فزعا وذهلت الألباب جزعا وأذكت ذكاء حرها ومنعت السماء درها واكتست الرياض غبرة بعد خضرة ولبست شحوبا بعد نضرة وكادت برود الرياض تطوى ومدود نعم الله تزوى ثم نشر تعالى رحمته وبسط نعمته وأتاح منته وأزاح محنته فبعث الرياح لواقح وأرسل الغمام سوافح بماء دفق ورواء غدق من سماء طبق استهل جفنها فدمع وسمح دمعها فهمع وصاب وبلها فنقع فاستوفت الأرض رياء واستكملت من نباتها ورئيا فزينة الأرض مشهورة وحلة الزهر منشورة ومنة الرب موفورة والقلوب ناعمة بعد بوسها والوجوه ضاحكة بعد عبوسها...))[٤٩]

وهو لا يختلف مع ابي القاسم بن الجد في المعنى والأفكار اذ بداها بالتسليم الكامل لقضاء الله تعالى وقدرته ، الذي لا يتصرف الا لحكمة بالغة لا يدركها البشر، ويعبرعن اعجابه بسلطان الله وارادته الحكيمة، فاذا ما انقطع المطر وحل الجدب فالحكمة بالغة ينبغي ان يلتفت الناس اليها ويصف حال الارض المجدبة باحوال الناس في هذا الجدب وما يبدو عليهم من هلع وخوف وباس وجزع[٥٠]. الا انه لم يرق الى مرتبة ابي القاسم ، فجاءت رسالته اقل منها في وصف المشاعر والتعبير عن صور الطبيعة في حالي حزنها وحبورها[٥١]. وان كانت رسالة ابن الجد قد اتخذت من الخيال اداة فان رسالة ابن الباجي قد اتكات على المقابلة اللغوية المنتزعة من اللون الدال الموحي[٥٢].

اما ابي محمد بن عبد الغفور (٥٣١هـ) فناظر ابي القاسم والباجي برقعة قال فيها: ((ولله جلت عظمته أوامر تحيل المنيرة عن طباعها وتسلب من حصن المعزاء فضل شعاعها وترد في خلف تمريه حلب ارضاعها لا تلحق بسوابق الرهان في ميادين الأذهان ولا تدرك بقداح القمار من معليات الأبصار تطلع المنح من ثنيات المحن وتخول العاجز الزمن منفسات الزمن وقد تذهب بما تهب وتغير على ما به تغير حكمة بهرت حقيقتها زواهر

الأفكار وغمرت دقيقتها زواخر بحار الاعتبار له الخلق والأمر وبيده النفع والضر... أرسل الله تلك النعمة بين يدي الرحمة ريحا لينة هبوب النسيم في الروض الهشيم شديدة حفز الغمائم لتدارك ما في الكمائم فنسجت بإذنه ملاءها ورمت أمراسها ودلاءها فلما لمت قزعها ووصلت بقدرة الخلاق قطعها سفحت عيون تلك النجوم بمكفهر الغيوم رحمةلعليل النبات ورقة لأليل المهجات فنمنم وشي التلاع بيد لطيفة صناع ورصع))[٥٣].

انها متسقة مع رسالة ابن الجد والباجي في الاطار العام الا انها تميزت في العناية بالتفاصيل الدقيقة والحرص على استقصاء المعاني التي اكتفى زميلاه يلمسها لمساً رقيقاً، مع توشية الاسلوب بوشاح من غموض وادخال بعض التصرف في هيكل الرسالة[٥٤].

ومن هذه الرسائل نجد ان للطبيعة الاندلسية اثر كبير في نفوس الكتاب الاندلسيين، وقد ادى ذلك الى امتزج مشاعرهم بمظاهر الطبيعة المختلفة، حتى لكان الطبيعة نفوسهم ورسائلهم. فشاركوها في غبرتها وخضرتها وشحوبها ونضرتها، وتجاوبوا معها[٥٥].

مناظرة الفكاهة والسخرية

من يتطلع الى الشخصية الاندلسية ويتقرى نمط حياتهم وما يتخللها من انماط وطبقات مختلفة ويغلب عليها الترف، كما ان لطبيعة الاندلس الجميلة الاثر الملموس في صفاء نفوسهم وتوقد قريحتهم،وخصوبة بديهيتهم وسرعتها[٥٦]. ولم يتركوا فناً الا برعوا به، اذ تخللت رسائلهم روح الفكاهة والسخرية وتعد جزء منها وذلك للترويح عن النفس لقضاء الوقت ونسيان المشكلات والمحن، وللحصول على المتعة النفسية والتعبير بصدق عن المشكلات المعقدة والاوضاع الخطيرة. وتيار اللهو والمجون الذي سرى في المجالس الادبية بخاصة، ونقد الاوضاع الاجتماعية والتعبير عن خلائل النفوس، وللرفاه الاجتماعي دور في ظهور لون السخرية في فن المناظرات [٥٧]. واطلق عليها اسم الزرزوريات، اذ يرمي هذا اللون الى وصف اصحاب الكدية، واتخذ الكتاب والادباء الاندلسين من صورة الزرزور اطاراً يتحدثون فية عن الكدية واصحابها وذلك لما يمتاز به الزرزور من خفة وحركة ونشاط[٥٨]. ويذكر لنا د.احسان عباس ان "اصل هذا النوع من الرسائل استثارة لفظية عابرة طورها الكتاب لابراز البراعة في التفكه والسخرية"[٥٩] واول

مبتدى لها الكاتب الوزير ابو الحسن بن سراج[٦٠]. خاطب بعض اهل عصره ويشفع فيها لرجل يعرف بالزرزير يقول في فصل منها: ((كتبت أحرفي هذه والود صقيل الوذائل مطلول الخمائل جميل البكر والأصائل والله تعالى يزيد أزهاره وضوحا وأطياره صدوحا وظباءه تيامنا وسنوحا بمن ويصل به وصل الله علوك وكبت عدوك شخص من الطيور يعرف بالزريزير أقام لدينا أيام التحسير وزمان التبلغ بالشكير فلما وافى ريشه ونبت بأفراخه عشوشه أزمع عنا قطوعا وعلى ذلك الأفق اللدن تدليا ووقوعا رجاء أن يلقى في تلك البساتين معمرا وعلى تلك الغصون حبا وثمرا وأنت بجميل تأتيك وكرم معاليك تصنع له هنالك وكونا وتستمع من نغم شكره على ذلك أغاريد ولحونا دون أن يلتقط في فنائك حبة أو يسترط من مائك غبة))[٦١].

وانتهت هذه الرقعة الى الوزير ابي القاسم بن الجد فناظرها برسالة قال فيها: ((حسنت لك يا سيدي أبا الحسين ضرائب الأيام وتشوفت نحوك غرائب الكلام واهتزت لمكاتبتك أعطاف الأقلام وجادت على محلك ألطاف الغمام وأشادت بفضلك ونبلك أصناف الأنام فان كان روض العهد أعزك الله لم يصبه من تعهدنا طل ولا وابل ولا سجعت على ايكه ورق ولا بلابل فان أزهاره على شرب الصفاء نابتة وأشجاره في ترب الوفاء راسخة ثابتة وقد آن الآن لعقم شجره أن تطلع من الثمر ألوانا ولعجم طيره أن تسمع من النغم ألحانا بما سقط إلي ووقع علي من طائر شهي الصفير مبني الاسم على التصغير فإنه رجع بذكرك حنينا وابتدع في نوبة شكرك تلحينا وحرك من شوقي إليك سكونا ودمث في قلبي لودك وكونا ثم أسمعني أثناء ترنمه كلاما وصف به نفسه لو تغنت به الورقاء لأذنت له العنقاء أو ناح بمثله الحمام لبكى لشجوه الغمام...))[٦٢].

كما سمع بها الوزير الكاتب أبو بكر عبد العزيز بن السيد البطليوسي (٥٢٠هـ)[٦٣]. فناظرها بقوله: ((أملك أبا الحسن الأحرار وأمك الكبار وانتجعت قطرك الأقطار وشكرتك حتى بترجيعها الأطيار ويصل به – وصل الله سعودك – من الطير نطاق من غير ذوات الأطواق يميس من المسك في حبرة أو طاق صغروه على جهة التعجب والإشفاق...ودخل في من علم البيان وزايل عمية البلبل والورشان وأفصح تسبيحا وتكبيرا وخرج من جملة من قال تعالى فيه ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾[٦٤] فإن طلبت – أعزك

الله – اسمه مكبرا وجدته لفظا من الزيادة مكرراأقام عندنا زمانا لا يتألف إلا رندا أو بانا ولا يلتقط إلاعنابا...))[٦٥]. استعرض براعته الاسلوبية في ذلك، اذ كتب رسالة جملها الى صديقه بمنقاره يقول: ((فأخذ الكتاب بمنقار وصفق من ريش الجناحين سرورا وطار)) واوصى صديقه بان يحسن وفادته ويكرمه وان ((تبسط له في بساتينك وتفرش له من وردك وياسمينك حتى تلبس من أغاريده الحلل المنشرة وينشر على منابر أدواحك شبيبا وابن لسان الحمرة وتنبت أرضك مندلا وجوك صندلا وثراك خزامى وقرنفلا وتهب له ريحك جنوبا ويحق...))[٦٦].

أما أبو محمد بن عبد الغفور فناظرها برسالتين واحدة منها إلى العتاب، وجعل الثانية في معنى الشفاعة فيقول: ((إن عجبا برالوزير بالزعانف والزرازير وحظره على قلب يكاد من الشوق إليه يطير ومن الظمأ يتشكى قطعا ويستطير وإنه مع عرضه على نار الجفاء غدوا ونبو مضجع الاحتفاء به هدوا ووصمة التقصير في جزائه وممارسة جرع أرزائه واختزائه إن لهج فبذكره أو هزج فبأفانين شكره... غيره من ذوات الريش النازحة بكل ضراء وعريش أنجب منه على اللغن وأحسن تصريف لسان وذقن كببغا لا تلعثم في عويص اللغى وشفنين يثير اللوعة بالرنين كأنما عاسرته عند التلقين...))[٦٧]

إذ نجد أبا محمد بن عبد الغفور يعاتب باستعمال البيان والبديع الى نهاية الرسالة. اما الثانية يطلب الشفاعة لزريزير بقولة: ((لله قطر باهى بك على الأقطار واستغنى بخضل ظلك عن صوب القطار أذكر نعيم الجنان بنضرته وسكن نافر الجنان بلألاء زهرته أي محسب أنيس وطير ومائح من النعم زخار من الخير... بأعالي الأشجار يمتع بشتى أفانين ويخجل البلابل والشفانين وفي فصل منها حتى اشتد منه الفقار واسود فرعه والمنقار ولم يكن به إلى العول افتقار وفنهض وكسب وأعرب عن نجرته وانتسب وأخذ بالطباع في التوليد وصدح غردا ببيت الوليد إلا ما غير منه وأحال ولا يعرف الممكن ولا المحال...))[٦٨].

وأما ابن أبي الخصال فلما علم بهذه الرسالة حاول ان يضع فيها شيئاً من التجديد وان يتفنن على طريقته مازجا تفننه بالتهكم، فجعل الرسالة اقرب الى الخطبة الدينية، حيث اطال الادعية الدينية والتحميدات في اولها، ثم جعل الزرزور يتحدث عن نفسه بعد ان

كان متحدثا عنه[٦٩]. فيقول: ((وقد اعفاكم زرزوركم من النصب، ومد الى السماء من الدعاء... ياالله يامن جعل الارض قراراً، وفجر خلالها انهاراً، وجعل لنا من الشجر الاخضر ناراً))[٧٠]. وجعل من الزرزور بطلا مقامياً، اذ يجعله واعظاً وخطيباً يزجر الناس، وينهي النص في اطار من المزاوجة بين الشعر والنثر، واستعرض لالوان متعددة من البلاغة والبيان ورغم ذلك فقد ظل عنصر الوصف طاغياً على الرسالة، يقول: ((انما هو زرزور علية الليل مزور، رشتة النجوم باندائها، وذرت علية من صبابتها ، فهو منمنم الاوداج، بديع الائتلاف والازدواج، يباسطكم البعيد والقريب، ويطارحكم المستعمل والغريب، يلقط الاحسان حباً، ويضمره حُباً، ويلفظه لؤلؤاً رطباً))[٧١].

وبهذا فان هذه المناظرات جمعت بين كتابها اواصر صداقة وثيقة ومحبه لابن السراج منشيء هذا الفن فراحوا يتوددون الية ويتقربون منه مع الاحتفاظ بشيء من التفرد والتميز لاصحابها، وتدور هذه المناظرات على محاور ثلاث هي المقدمة وتتناول بشكل عام مآثر من وجهت اليه رسالة الشفاعة او الدعاء له، وتصلح لاي عظيم ولاي مرجو، ثم الغرض الاساسي من هذه الرسالة سواء الشفاعة او العتاب وتنتهي بخاتمة تتسم بالاختضاب ووحدة المضمون اذ منهم من حذا حذو ابن السراج فجعل الشفاعة للآخرغاية، واتخذ من التفكه وسيلة. ومنهم من جعل من الزرزور اداة فراح ينطقة او جعل منه قناعاً يشكو من خلفة الصداء، وان تعدد الموضوعات التي طرحها اصحاب الزرزوريات كبير اثر في تباين صورة الزرزور الذي اضحى له هيأة الطير وشكلة، وقريحة الانسان وعقلة[٧٢]، واية توظيفه، فاذا كان ابن سراج قد استغل الايحاء اللفظي العابر لاسم من شفع له فراح يوظف مالهذا الطائر من سمات واسماء توظيفاً يتسم بمسحة فكهة، فان هذه المسحة اضحت سمة اساسية لاغلب الزرزوريات، وان اتخاذ الزرزور مادة للشفاعة والفكاهة وشاحاً لم تعق الكتاب عن تطوير نظرتهم اليه، وتوظيفة توظيفاً رمزياً، فقد تحول الزرزور من رمز لشخص يشفع له الى عنصر فاعل في مجريات الزرزورية، فاضحى متحدثاً بعد ان كان متحدثاً عنه واذا هذا المتحدث حين يكلم الناس عن توبته او يستثيرهم الى السخاء من اجله وينال نقودهم عن طريق الوعظ صورة لبطل المقامة، وهو ايضاً ذلك البطل نفسه حين يمزج بين النثر والشعر في نطاق واحد معلناً عن مهارته في هاتين

الناحيتين[٧٣]. وبهذا فالمناظرات تدور المناظرات حول محورين متباينين احدهما فكاهي فيه نصيب للدعابة والضحك وهو مانجده عند ابن السراج وابن الجد والثاني فهو رمزي تفجعي، يوحي ببؤس الادباء وشقائهم، كما يدل على تلهف بعضهم على الدنيا، واسراعهم الى فضح مافي نفوسهم من غرائز التكسب والاستجداء[٧٤].

مناظرة السيف والقلم

الى جانب انعكاس الطبيعة على فن المناظرات كان للاوضاع السياسية كبير اثر في فن المناظرات منها مناظرة السيف والقلم واحقية السيادة والزعامة لكل منهما. ويعد ابن برد الاصغر اول من سبق الى القول في ذلك بالاندلس، اذ كتب رسالة الى مجاهد العامري ، وبدا رسالته بمقدمة وصفية تحدث فيها عن اهمية السيف والقلم ودورهما في الحياة فهما وسيلتان للوصول الى المجد والشرف والمراتب العليا[٧٥]. يقول فيها: ((أما بعد حمد الله بجميع محامده وآلائه والصلاة على خاتم أنبيائه فإن التسابق من جوادين سبقا في حلبة وقضيبين نسقا في تربة والتحاسد من نجمين أنارا في أفق وسهمين صارا على نسق والتفاخر من زهرتين تفتحتا من كمامة وبارقتين توضحنا من غمامة لأحمد وجوه الحسد... وإن السيف والقلم لما كانا مصباحين يهديان إلى القصد من بات يسري إلى المجد وسلمين يلحقان بالكواكب من ارتقى لساميات المراتب وطريقين يشرعان نهج الشرف لمن تقرى إليه ويجمعان شمل الفخر لمن تأشب عليه ووسيلتين يرشفان العلى فم عاشقها ويبسطان في وصال المنى يد... وحين كشف الجدال قناعه ومد الخصام ذراعه وهز الإباء من عطفه وأشم الأنف من أنفه قاما يتباريان في المقال ويتساجلان في الخصال ويصف كل واحد منهما جلال نفسه ويذكر فضل ما اجتني من غرسه ويبأى بمنقبة نافرت السها ومرتبة ريضة خيسها ورياسة من ذوائب الجوزاء صادها ونباهة في صهوة العيوق أفادها

فقال القلم ها الله أكبر أيها المسائل بدءا يعقل لسانك ويحير جنانك وبديهة تملأ سمعك وتضيق ذرعك

خير الأقوال الحق وأحمد السجايا الصدق والأفضل من فضله الله عز وجل في تنزيله مقسما به لرسوله فقال ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[٧٦] وقال﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ

بِالْقَلَمِ ﴾[٧٧] فجل من مقسم وعز من قسم فما تراني وقد حللت بين جفن الإيمان وناظره وجلت بين قلب الإنسان وخاطره لقد أخذت الفضل برمته وقدت الفخر بأزمته فقال السيف عدنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة لا أسر ولكن أعلن قيمة كل امرئ ما يحسن إن عاتقا حمل نجادي لسعيد وإن عضدا بات وسادي لسديد... فقال السيف يالله استتت الفصال حتى القرعى ورب صلف تحت الراعدة لقد تحاول امتداد بباع قصيرة وانتفاضا بجناح كسيرة أمستعرب والفلس ثمنك ومستجلب وكل بقعة وطنك جسم عار ودمع بار تحفى فتنعل بريا حتى يعود جسمك فيا... فقال القلم من ساء سمعا ساء إجابةأستعيذ بالله من خطل أرعيت فيه سواءك وزلل افتتحت به كلامك إن ازدراءك بتمكن وجداني وبخس أثماني لنقص في طباعك وقصر في باعك ألا وإن الذهب معدنه في العفر وهو أنفس الجواهر والنار مكمنها في الحجر وهي إحدى العناصر وإن الماء وهو الحياة أكثر المعايش وجدانا وأقلها أثمانا وقلما تلفى الأعلاق النفيسة إلا في الأمكنة الخسيسة وأما التعري فغنينا بالجمال عن جر الأذيال...فقال السيف جعجعة رحى لا يتبعها طحن وجلجلة رعد لا يليها مزن في وجه مالك تعرف أمرته وجه لئيم وجسم سقيم وغرب يفل ودم يطل ودموع سجام كأنهن سخام ورأس لم يتقلقل فيه لب وجوف لم يتخضخض فيه قلب أوحش من جوف العير يشهد عليه كثرة الجور بقلة الخيرفهب من نومك وأفطر من صومك وتحكم بطرف نظار في جسم ماء وحلة نار... فقال القلم إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا ما كل بيضاء شحمة ولا كل سوداء تمرة إن ماءك السائل الجامد وإن جرمك الملتهب لبارد ولن يغرق فيه حتى تكرع في السباسب العطاش ولن يحترق به حتى يقع في نار الحباحب الفراش فأقصر عن جفنك من العمى رواقا واحلل من خصرك للجهل نطاقا يسفر البلاء لك عن قضيب عاج ولسان سراج وقدح ورق جلل بالعقيان وحلة نرجس فوق جسم أقحوان...))[٧٨].

وهكذا تجري المناظرة بينهما الى ان يتبادرا الى السلم وقدا لواءهما، وقالا ((إن من القبيح أن تتشتت أهواؤنا وتتفرق آراؤنا وقد جمعنا الله في المألف الكريم وأحلنا بمحل غير ذميم بأعلى يد نالت آمالها ووافت المطالب في أوطانها ولم تقابل بابا مغلقا إلا قرعته ولا حجابا مضلعا إلا رفعته ولا جدا عاثرا إلا أقالته ولا أملا غائرا إلا أسالته تلك يد الموفق أبي

الجيش مولى المعالي ومسترقها ومستوجب المكارم ومستحقها العاقد لواء المجد بذوائب السماك والمطل بخفره على الأفلاك والمقدم إذا أحجمت الأبطال والضاحك إذا بكت الآجال والساري إلى العلياء إذا أدلج الكرام والمسهد في الآراء إذا هجد الأنام والطالب ثأر العديم بجوده والمشفع النيل بمزيده والمسعف لميعاده والمخلف لإيعاده والمجري في ذاويات الهمم ماء والمطلع في ظلمات الآمال سناء

فإذا قد عدل بيننا بحكمه يوم وغاه ويوم سلمه فجاوز بك حد المسالمة وجاوز بي حد المشارسة ولم يثنك حتى بلغ مناه ولم يثنني حتى وافق هواه ولم يقصر بي عن غاية بلغك إليها ولم يقدمك إلى مرتبة أخرني عنها فأجمل رداء نرتديه وأفضل حذاء نحتذيه وأهدى سبيل نقصده وأصفى منهل نرده مؤالفة نجرر ذيلها ونميل ميلها ومعاشرة نتجانى ثمارها ونتعاطى عقارها وذنوب نخلي أوطانها ونهدم بنيانها ودمن نعفي دمنها ونرد في أجفانها وسنها ثم قال القلم إن مما نبرم به عقدنا وننظم عقدنا ويستظهر به بعضنا على بعض إن حالت حال كان للدهر انتقال أن نخط كتابا مصيبا يكون لنا منابا وعلينا رقيبا فقد يدب الدهر بعقاربه بين المرء وأقاربه ويسعى بالنميمة بين الفرعين من الأرومة فقال السيف أنت والبيان وجريا والميدان فقال القلم إن النثرفي ذلك مثل))[٧٩].

وبهذا اتفقا على انهما سويا في يد مجاهد العامري الذي جمع بين السيف والقلم في يد واحدة فهو عالم وفارس شجاع قوي. واذ بابن برد قد نحى منحى رمزياً فكتابته هذه الرسالة الى مجاهد العامري الذي اعتمد على الجند في توحيد سلطانهم وادى الى تاخر مرتبة اصحاب الاقلام فاراد ابن برد ان يشيد بفضل الكتاب ودورهم في توطيد السلطان ، ولا يستطيع السلطان الاستغناء عنهم ومهما كانت الدولة قوية فهي محتاجة اليهم لتسجل مآثرهم ونشر مكارمها وادارة امورها ويدعو الى مساواة اصحاب الاقلام باصحاب السيوف [٨٠].

وان المناظرات لم تقتصر على انها فن مستقل بذاته وانما نجد المناظرات ممتزجة بفن اخر كالقصص، منها قصة التوابع والزوابع اذ يخبرنا ابن شهيد الاندلسي، انه التقى في رحلته في عالم الجن بتوابع الشعراء والكتاب واجرى معهم في لقائه بهم محاورات ومناظرات ينتزع فيها اعجابهم بشعره ونثره ويحصل على اجازتهم[٨١].

وناخذ جانباً من هذه المناظرات ، منها مناظرة حادة وساخرة جرت بين ابي عامر وبين انف الناقة، شيطان الافيلي يصب فيها ابو عامر جام غضبه ومنتهى زرايته على شيطان خصمة فيقول: ((واخذت للكلام اهبته، وليست للبيان بزته، فقلت: وانا ايضاً لا اعرف على من قرات؟ قال: المثلي يقال هذا؟ فقلت: فكان ماذا؟ قال: فطارحني كتاب الخليل، فقلت: هو عندي في زنبيل ، قال: فناظرني على كتاب سيبوية قلت: خربت الهرة عندي علية ، وعلى شرح ابن درستوية. قال لي: دع عنك، انا ابؤ البيان، قلت: لاه الله[٨٢] انما انت كمغن وسط، لا يحسن فيطرب، ولا يسيء فيلهي[٨٣]...))[٨٤] وهكذا تجري المناظرات الى نهاية القصة.

من هذا نجد ان ابن شهيد ينقلنا الى عالم الخيال، ويصور لنا تفاصيل رحلته ومناظراته مع شياطين الشعراء والكتاب...

الخاتمة

انتهت قراءتنا التي رصدت جانبا من الثقافة العربية في الأندلس بظاهرة المناظرات النثرية في الأدب الأندلسي التي تعد أندلسية النشأة جماعية الأداء منقطعة غير ممتدة، إذ أقدمت ثلة من الكتاب الاندلسين على ارتياد بعض المجالات التي كانت وقفا على الشعر، تحدوهم رغبة صادقة في إقامة الحجة على أن من بين الأندلسيين من يوضع مع أعلام النثر المشرقي في كفتي ميزان.

وكان للحكام والنقاد والمؤرخين الدور الأكبر في ظهور هذا الفن.وأبدع الأندلسيين في المناظرات الأدبية الخيالية إذ انعكست البيئة الأندلسية من طبيعة فاتنة وخلابة على أنتاجهم الأدبي وكيف استنطقوا النباتات وظواهر الطبيعة كالمطر وامتزاج مناظراتهم بالفكاهة والسخرية باتخاذ نوع من الطيور كالزر زور في مناظراتهم، كما كان للجماد دور أيضا مثل السيف والقلم وجعلها شخوص تتناظر وتتحاور متخذين منها أقنعة لرصد واقعهم الاجتماعي والبوح بما يختزنه اللاشعور من طموحات.والى جانب ذلك لقد تخللت فنون أخرى مناظرات تنقلنا إلى عالم غير عالمنا الواقعي إلا وهو عالم الجن إذ وجد في قصة الزوابع والتوابع المناظرات التي أجريت مع شياطين الشعراء والكتاب.

وأكثر الكتاب الاندلسين في مناظراتهم من البيان والبديع وأجادوا في استعمالها واهتمامهم الكبير في الجمل والعبارات وعملوا على زيادة الانسجام بين اللفظة والمفردة والجملة منسجمة مع معانيها وتفننوا بأسلوبهم حتى كانت بعض رسائلهم تبدو كأنها شعر منثور.

الهوامش والمصادر

(١) ينظر تأريخ النقائض في الشعر العربي، احمد الشايب، ط٣، ١٩٦٦، مكتبة النهضة المصرية والقاهرة :٤-٩

(٢) تاج العروس، للزبيدي، مادة (نظر)

(٣) تاج العروس، للزبيدي، مادة (نظر)

(٤) تاج العروس، للزبيدي، مادة (نظر)

(٥) تاج العروس، للزبيدي، مادة (نظر)

(٦) ينظر المناظرات في الأدب العربي إلى نهاية القرن الرابع، د.أحمد أمين مصطفى، د.ط، ١٩٨٤ والقاهرة: ٧.

(٧) ينظر المناظرات في الأدب العربي إلى نهاية القرن الرابع، د.أحمد أمين مصطفى، د.ط، ١٩٨٤ والقاهرة: ٧

(٨) هو سليمان بن خلف بن سعيد القرطبي المالكي الأندلسي الباجي، الفقيه المتكلم المحدث المفسر الأديب الشاعر توفي (٤٧٤هـ). ينظر فوات الوفيات والذيل عليها، محمد شاكر الكتبي – تحقيق: د. أحسان عباس، د.ط، دار الثقافة، بيروت – لبنان: ٦٤/٢، ومعجم الأدباء، ياقوت الحموي، د.ط، د.ت، دار التراث العربي، بيروت: ٢٤٧/١١.

(٩) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، احمد بن محمد المقري التلمساني –تحقيق، د. إحسان عباس، ط ١ و دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ : ٧٧/٢

(١٠) ينظر النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري، مضامينه وإشكاله، د.علي بن محمد دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٥٤٧:١٩٩٠

(١١) النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري: ٢٠٣

(١٢) الأصول الفنية للشعر الأندلسي (عصر الإمارة)، د.سعد إسماعيل شلبي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٤ :٢٠٧

(١٣) البديع في وصف الربيع، أبو الوليد الحميري (٤٤٩هـ)، عني بنشره وتصحيحه هنري بيريس، المطبعة الاقتصادية، الرباط، ١٩٤٠ :٤٢

(١٤) نفح الطيب: ٢٤/٢، وينظر دراسات في الأدب الأندلسي، د.أيمن محمد ميدان، ط ١، ٢٠٠٤، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية: ٨٠

(١٥) ينظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، د.أحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع ١٩٨٦ :٤٧٧

(١٦) ينظر الأدب الأندلسي موضوعاته ومقاصده، د. مصطفى الشكعة، دار النهضة العربية، بيروت: ٤٨٢

(١٧) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني ت(٥٤٢هـ)- تحقيق سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨، م١: ٢٠٦-٢٠٧

(١٨) الذخيرة م١: ٨٦

ينظر الأدب الأندلسي موضوعاته ومقاصده: ٤٦٧ (١٩)

(٢٠) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، د.هنري بريس، ترجمة د.الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠: ١٤٩-١٦٨

(٢١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)،د.أحسان عباس ، دار الثقافة، بيروت، ط ٥، ١٩٧٨ : ١١٠

(٢٢) ينظر الأدب الأندلسي موضوعاته ومقاصده:٢٧٥

(٢٣) ينظر المصدر نفسه: ٢٧٨

(٢٤) النثر الأدبي الأندلسي: ٥٩٢ ، والأدب الأندلسي موضوعاته ومقاصده : ٤٦٧

(٢٥) هو أبو مروان، عبد الملك بن إدريس الجزيري واحد من كبار أدباء الأندلس في عهد بني عامر، استوعب أجادة النظم والنثر جميعا معا، كان وزير المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر الذي تغير عليه فقتله خنقا عام ٣٩٤هـ، في خبر طويل ذكره ابن بسام نقلا عن ابن حيان في الذخيرة:م٤/٢٨، نفح الطيب:٢ / ٦٩ ، المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الأندلسي (ت٦٨٥هـ) – تحقيق د.شوقي ضيف ، ط٣، دار المعارف، القاهرة : ١ /٢٤٤ ، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي (٥٩٩هـ) ، د.ط، د.ت، مكتبة المثنى، بغداد، ومؤسسة الخانجي، مصر، ١٨٨٣: ٣٢٧

(٢٦) دراسات في الأدب الأندلسي: ٨٠

(٢٧) الذخيرة: م٤ /٣٠

(٢٨) الـذخيرة: م٤ م٣٢-٣٣ ،نفـح الطيـب: ج٢ / ٢٤ ، البيـان المغـرب فـي أخبـار الأنـدلس والمغـرب ، ابـن عـذارى المراكشـي (٦٩٥هـ) – تحقيـق بروفنسـال ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ط ، د.ت : ٣ م١٩ ، المقتبس :٢١٢-٣٦٣

(٢٩) أبو الوليد بن جهور ،الأمير الثاني والأخير أيضا في دولة بني جهور التي حكمت قرطبة عقب الفتنة الكبرى ، ودامت أربعة عقود من الزمان (٤٢٢-٤٦٢هـ) ، خلف أباه أبا حزم بعد وفاته (٤٣٥هـ) ، وفي عهده التهم المعتمد بن عباد دولنه ضاما إياها إلى دولته باشبيلية سنة ٤٦٢هـ ، ولأبي الوليد هذه مقولة ثاقبة ترصد أحوال ملوك الطوائف ومالت أليه من ترد وتهالك وتناقض أيضا ، فقال: "جاهل ويطلب قارئا وعلماء يطلبون الأباطيل ".ينظر أخبار دولة بني جهور في الذخيرة: م١/٣٧٣ ، والبيان المغرب: ٢٥٨/٣

(٣٠) ينظر دراسات في الأدب الأندلسي: ٨١-٨٢

(٣١) الذخيرة: م٢/٧٧

(٣٢) الذخيرة:م٢/٧٦ ،والبديع في وصف الربيع:٥٣

(٣٣) ينظر دراسات في الأدب الأندلسي: ٨١-٨٢

(٣٤) البديع في وصف الربيع: ٥٣

(٣٥) ينظر دراسات في الأدب الأندلسي :٨٢

(٣٦) الذخيرة: م٢/٧٧

(٣٧) المصدر نفسه والصفحة نفسها

(٣٨) المصدر نفسه والصفحة نفسها

(٣٩) المصدر نفسه والصفحة نفسها

(٤٠) الذخيرة: م٢/٧٧-٧٨

(٤١) معجم الأدبـاء ، يـاقوت الحمـوي (٦٢٦هـ) ، تحقيـق أحمـد فريـد الرفـاعي ، مكتبـة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٦:٢ /٣١١-٣١٢

(٤٢) الذخيرة: م٢/٧٨

(٤٣) المصدر نفسه: م٢/١٢٠

(٤٤) المصدر نفسه: م٢/٢٩٧

(٤٥) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين:١٩٧

(٤٦) الذخيرة: م٢/١٦٧-١٧٧

(٤٧) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، فايز عبد النبي فلاح القيسي ، دار البشير ، عمان ، ط ١ ، ١٩٨٩ : ٢٥١

(٤٨) سورة الشورى: ٢٨

(٤٩) الذخيرة: م٢/١٢١

(٥٠) أدب الرسائل في الأندلس:٢٥٠

(٥١) النثر الأدبي الأندلسي:٤٠٥

(٥٢) أدب الرسائل في الأندلس : ٢٥١

(٥٣) الذخيرة: م٢/٢٠٧

(٥٤) النثر الأدبي الأندلسي: ٤٠٧

(٥٥) أدب الرسائل في الأندلس:٢٥٢

(٥٦) الأدب العربي في الأندلس تطوره – موضوعاته وأشهر أعلامه ، د. علي بن محمد سلامة ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٩ : ٤٣

(٥٧) ينظرا لنثر الفني في عصر الموحدين وارتباطهم بواقعهم الحضاري ،د.رضا عبد الغني الكساسنة: ٢١٥-٢١٦

(٥٨) ينظر أدب الرسائل: ٢٥٩

(٥٩) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين: ٢٩٥

(٦٠) هو أبو الحسن سراج بن عبد الملك بن سراج ، توفي (٥٠٨هـ) ينظر ترجمته في القلائد:٢٠٠ ، والذخيرة:م٢/ ، والمغرب: ١ /١١٦

(٦١) الذخيرة م ٢ /٢٠٩

(٦٢) الذخيرة م٢ / ٢١٠

(٦٣) أبو بكر بن القبطرنه هو الوزير عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز بن بطليوس، واحد فرسان الكلام واحد ثلاثة أخوة وزراء شعراء يعرفون بين القبطرنه او القبطورنه. ينظر نفح الطيب ١٥٥/١ ، والمغرب ٢٨٧/١

(٦٤) سورة الإسراء: ٤٤

(٦٥) الذخيرة م٢/٤٤٩

(٦٦) الذخيرة م٢/

(٦٧) الذخيرة م٢/٢١١

(٦٨) الذخيرة م٢/٢١٣

(٦٩) ينظر تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين: ٢٩٧

(٧٠) أدب الرسائل في الأندلس ٢٦٢

(٧١) أدب الرسائل في الأندلس ٢٦٢ ا

(٧٢) النثر الأدبي الأندلسي: ٥٤٦

(٧٣) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين: ٢٩٩

(٧٤) النثر الأدبي الأندلسي: ٤٤٧

(٧٥) ينظر أدب الرسائل في الأندلس: ٢٠٦

(٧٦) سورة القلم: ١

(٧٧) سورة العلق:٤

(٧٨) الذخيرة م١ م٣٢٥

(٧٩) الذخيرة م١ / ٣٢٨

(٨٠) ينظر أدب الرسائل: ٢٠٨-٢٠٩

(٨١) ينظر الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، د.منجد مصطفى بهجت، د.ط ، د.ت : ١٨٢ ، وينظر النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ، د.حازم عبد الله خضير ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ،١٩٨١ : ٢٩٥

(٨٢) لاه الله بمعنى تعالى الله

(٨٣) الهي : ترك الشيء

(٨٤) الأدب الأندلسي موضوعاته: ٥٦٦ ، وصور من الأدب الأندلسي ، د. مصطفى الشكعة، دار النهضة العربية ، بيروت ، د.ط ،١٩٧١: ٣٣٩